نفسية الدكتاتــور

أطلق السيد غسان تويني على لبنان إسم العصفورية الدستورية وشرح واستفاض في صفات هذه العصفورية وتمظهر هذه الصفات سلوكاً عملانياً على أرض الواقع. ما لم يقله السيد تويني إلا تلميحاً هو أن وجود عقلية الديكتاتور ونفسيته في أكثر قادتنا الروحيين والسياسيين هي التي جعلت من بلادنا عصفورية نموذجية. لأن الديكتاتور بوعيه وبلا وعيه لا يحترم عقـل الجماهيـر ولا يخشى ذكاءها.

إنه لا يؤمـن بالمنطق ولا بالمصلحة العليـا للمجتمع، بـل يؤمن بالدعاية. إن الدعاية عنـده سلاحٌ رهيب رصد له كل إمكاناتـه، والتخـويف ونشر الرعب هـو العامـود الفقري لكل دعاياتـه. التخويف من كل شيء بكل شيء، إن غريزة الخوف هي أقوى وأشمل غريـزة تستشير الجمـاهير وتستهلك أحاسيسها، ولهذا يعتمد عليها أصحـاب الفكر الديكتاتوري كحجر أساس للمحافظة على أمجادهم التي إكتسبوها في غفلة من عيـون التاريخ.

فالخوف مـن الجماهير أقـوى وأفعل من الحب والعقل والقانون، وعن ذلك الخوف يتـولد الحقـد، عندما يتفاعـل الخوف مع الحقـد تتـولد قـوة شريرة شيطانية تحرك الجمـاهير باتجاه الجنـون وتجعلها تتخلى عـن جميع الفضائـلالإنسانية لتفعل شرّ ضروب الهـوس والظلم والحماقة والغبـاء. كيف نفسر وجـود مئـات آلاف الناس يتجمعون ويهتفون ويهزون قبضاتهم فـي الهـواء متوعدين ومهددين وعلـى شفاههم يعلو زبد الحقد ولذة الإنتقام. ألا يحق عندها للآخرين أن يفقدوا منطق العقل أمام هذا التخويف المريع، وعندما يفقد الإنسان إتزانه يتصرف بآلية ردة الفعل، نحن في هذا الشرق العتيق عشنا دائماً بسلم قيم مشوه صنعه الظلم والتعسف والإستبداد ومصادرة عقول الناس وحرياتهم المسؤول فينا هو غالباً ديكتاتور مستبد حتى ولو كان ناطوراً فـي ضيعة نائيـة، يظن أن وجهه لن يكون جميلاً إلا إذا كانت كل الوجـوه الأخرى دميمة، ووجنتيه لن تكـونا متوردتين إلا إذا كانت كل الوجنات الأخرى مصفرة، إنه الكائـن الذي لا يستطيع أن يشعر بالسعادة إلا إذا كان كل مـن سواه بائساً محبطاً مهزومـاً. إنـه يعيش بروحية معاداة الآخرين وليس بروحية المحبة وبروحية الكائن المتسلط المحتاج الـى عبيد وغلمان وجـوار لا الى أصدقاء ومستشارين وأحبـة. إن

الديكتاتور لا يطيق النقـد والتفكير فالذين ينقدون ويفكـرون لا بدّ أن يكونوا من بقايا الظلام الإستعماري القديم أو الجديـد. إن التفكير كفـرٌ صريح بالديـن والطقوس ذلك الديـن الذي أمر بالإتباع لا بالإبداع، فكل إبداع ضلال وكل ضلال في نار جهنم، إن التفكير كفـرٌ بالأمة وتـراثها لأنه يفرز في خانة التبعية والمساهمة في تفتيت القـوى وكسر مقولة وحدة الصف التي هي وحدة مقدسة تحث زعامة الديكتاتور. ولماذا هذه البدعة التي إسمها التفكير فالزعامة المطلقة قـد أغنت عـن كل ذلك بموهبتها الحسية الفيضية المعصومة من الخطأ. إن الحاجة هنا هي للهتاف والتصفيق وهزّ القبضات أكثر إلحـاحاً مـن الحاجة الى التفكير النقدي والتفكير المنطقي. إن الديكتاتورية هي تواصل ووصال نبـي صوفي مع الحقيقة المطلقة وبهذا تغدو أعلى مستوى من العلم والمعرفة التي تقـوم على التحليل والإستنتاج والإستقراء والملاحظة والتجربة.

الديكتاتور لا يحترم مقـولة أرسطو أن الإنسان كائـن عاقـل إجتماعي بالفطرة، فهو يحتقر العقـل ويمجد القـوة وهـو يستغل الفراغ النفسي والإجتماعي في مرحلة من مراحل الخيبة والإحباط ليقفز مـن الشارع الـى السلطة ولذلك عندما يكلم الجماهير يكلمها دائماً بلغة الشارع فيشبّع أساليب الوقاحـة والسباب والشتائم والإتهامات غير المألوفة، إنه يعلّ م أتباعه أخلاق جديدة هي لغة إغتصاب الآخرين عقلياً ونفسياً.

ومشكلة هـذه الجماهيـر التي يكلمها أنها تؤمـن بالذيـن يعلمـوها الكـذب والغـواية والبغض والحماقـات. لا لمن يعلموها الحب والحقيقة،والجماهير دائماً ترفض العقل والإنفتاح والإتـزان. إن الأكاذيب أقـوى سحراً من أقـوى الحقـائق والجماهير دائماً ترفض العقـل وتتبع السحر إنها الغـوغائية التي ليس عنـدها منـاعة ضدّ الإنخـداع والخوف والشعـوذة. إن إستعداد الجماهيـر للإتباع والإنخداع وخصوصاً في البلاد التي تمرست منذ مئـات السنين بالحكام المستبدين الذيـن تعـودوا مصادرة عقـولها وحرياتها. هـذا الإستعداد مشكلة مستعصية لا يوجـد لها عـلاج لأن علاجهـا فـي الحقيقة هـو إحترام الإنسان لذاته ولذوات الآخرين وإحترام الإنسان للحياة ولقوانينها والطبيعة والعقلانية وبذلك يصبح الإنسان إبـن الحياة لا إبـن الموت، إبن الوجود لا إبن العدم، إبـن التطـور والإرتقـاء والسعي الى المعرفة والإندماج في ورشة كونية للتقدم والإزدهار والتنمية لا إبـن التصنم في وثنية الفكر السلفي الأصولي الذي فسر

علاقة الإنسان بالمجتمع والوجـود مـرة واحدة وأغلق الباب وحـرّم إعادة فتحه من جديـد وإلا... الشـرّ المستطير.

كمال يوسف سري الدين